ما فعلت الأيام

للأستاذ أحمد أمين

عرفته بالاسكندرية منذ عشرين عاما ، شاباً رقيق البدن ، ضئيل الجسم ، مسنون الوجه ، شاحب اللون ، أظهر مميزاته الرقة والتواضع والتدين . حيي الطبع ، شديد الخجل ، إن جلس فى قوم اعتقل لسانه ، وأطرق رأسه وأرخى عينيه ؛ وإن صدرت منه هفوة أو شيء ظنه هفوة ، تمنى لو ساخت به الأرض ، وظل يحاسب نفسه ويطيل تأنيبها ، فآثر الانفراد وأخلد الى الوحدة ، واستأنس بالوحشة ، فقلّت معرفته بالناس ، وقلّت معرفة الناس به ، لا يعرف من العالم إلا مدرسته التى يدرس فيها ، وبيته الذى يأوى اليه ، ومسجده الذى يتعبد فيه ؛ فأما الحياة وشؤونها ، وجدها وهزلها ، وملاهيها وألاعيبها ، فلا يدرى منها شيئاً .

لا يجلس فى مقهى لأنه يخلّ بمروءته ، ولا يذهب الى تمثيل أو سينما لأنهما لا يخلوان من امرأة سافرة ، ولا يشترى شيئاً من بقال عنده لحم خنزير خوفاً من أن تكون سكينته التى يقطع بها الجبن والحلوى قد مست الخنزير ، فلا يطهرها مسح ، إنما يطهرها غسل سبع مرات إحداهن بالتراب ؛ ويغض طرفه اذا سار حذر أن تقع عينه على امرأة .

أعز شيء عليه فى الوجود دينه ، حياته كلها دين ، ومثله الأعلى رجل ظهارته دين ، وبطانته دين ، تقتير عينيه فى خشوع دليل على أنه قضى شطر ليله فى عبادة ومناجاة ، أسبل عليه الدين نوعاً لطيفاً من الرضى بالقضاء والقدر ، فلا يأسى على فائت ، ولا يجزع على ميت ، ولا يستخفه الفرح لخير ، ولا يغلو فى الحزن على شر ، راض بما كان وما يكون ، فكل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيْس ، كل أحكامه صادرة عن دين ، فالرجل الطيب من تدين ، ورجل السوء من لم يتدين ، ويستحيل على رجل أن يكون طيباً إذا شرب كأساً من خمر ، أو لعب لعبة ميسر ، أو ترك صلاة أو زكاة — يوفق دائماً بين أعماله فى الحياة وأوامر الدين ، إذا أراد الرياضة ذهب الى سيدى بشر لزيارته ، أو لسيدى جابر لصلاة الجمعة فيه ، أو أخذ جزءاً من « الاحياء » وذهب الى « طابية قايتباى » يخلو فيها بنفسه ودينه وكتاب الاحياء . وإن أراد أن يحفظ شيئاً من الأدب حفظ فى نهج البلاغة لأنه يجمع بين البلاغة والدين ، وإن عرضت فرصة فى دراسته للغة العربية خرج من اللغة الى الدين ، وانقلب واعظاً لتلاميذه ، حتى استطاع أن يكوّن منهم فرقة دينية تلتزم الصلاة والصوم وشعائر الدين .

عرفته اتفاقاً ، ولست أدرى الآن سبب المعرفة وكيف كانت ، وكل ما أذكره أنى عرفته ، وفى لمحة تحولت المعرفة الى صداقة فحب ، فكان من خاصة إخوانى وأقربهم مودة الى قلبى ، يأنس بى وآنس به ، ويفضى إلىّ بدخيلة نفسه وكامن أسراره ، وكان حبى له مشوباً بعطف عليه ورحمة له ، عطفنى عليه ظرف فيه ، وأرأفنى به رقة حواشيه ، وملأ نفسى رحمة عليه قسوته على نفسه وأخذه لها فى كل شيء بالأشد الأحزم ، قد ملك الدين عليه نفسه ، فروّعه من كل نعيم خشية السؤال ، وهوّل عليه كل لذة خوف العقاب ، وغلبت عليه فى كل تصرف فكرة الموت مخافة ما بعده ، إن قال له قائل « ولا تنس نصيبك من الدنيا » قال « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

على كل حال نعمنا بالصداقة حيناً تساهمنا فيه الوفاء ، وتقاسمنا الصفاء ، أسافر الى الاسكندرية فأرى أول واجب علىّ أن أزوره ، ويحضر الى القاهرة فيرى أول واجب عليه أن يزورنى ، وأكتب

إن رسالة الفقيد الكريم كانت ضرورة من ضرورات الاصلاح فى عصر قضى الله أن يبعث فيه مجد العرب ليحيا من حيَّ عن بينة ، فان نهوض الأمة على تاريخ طامس ، وأثر دارس ، ولغة معجمة ، وهيكل منحل ، يكون أشبه بنهوض الكسيح لا يقوم الا ليقع

وقد لخص الفقيد رسالته أجمل تلخيص فى ثلاثة أبيات من الشعر أنشأها ثم جعلها زخرف داره ، وصورة شعاره ، ومرجع حديثه . وهى:

وقفت على احياء قومى يراعتى ... وقلبى وهل إلا اليراعة والقلب

ولى كل يوم موقف ومقالة ... أنادى ليوث العرب ويحكموا هبوا

فاما حياة تبعث الشرق ناهضاً ... وإما فناء وهو ما يرقب الغرب

رحمه الله رحمة واسعة . وعوض العروبة والعربية والاسلام من فقده خير العوض.

أحمد حسن الزيات

اليه ، ويكتب إلىّ ، ثم عفّى الزمان على الصداقة ففترت حرارتها ، وخمدت جذوتها ، لا لسبب إلا أن الصداقة كـكل حىّ إذا لم تُغذ دائماً بالمقابلة والمكاتبة أسرع اليها الذبول فالفناء .

* * *

ثم دارت الأيام دورتها ، وتعرفت فى الاسكندرية بانسان جديد ، فاذا هو صديق القديم ، هو فى هذه المرة بدين بطين ، مطهم الوجه ، ريان السواعد ؛ كنت فى أيامى الأولى أقرأ فى أرنبة أنفه وصفاء جبهته آيات السذاجة والاخلاص ، وكنت أرى فى وجهه وجلسته عزوفاً عن الدنيا ، وزهداً فى الاستكثار منها ، ورضى بميسورها ؛ وكنت ألمح فى فتور عينه حياء العذراء وخجل المخدرات ؛ وكنت أرى فى نبرات صوته وحركات جفونه ونظرات عينه ديناً وورعاً ، فاذا كل ذلك قد استحال كما يستحيل الماء الى ثلج ، علمت أنه قد ورث من أبيه فأثرى ، وسمحت لى الظروف بمخالطته فأدهشنى ما رأيت من تغير وانقلاب — رأيته وقد أماط عن وجهه قناع الحياء ، وخلع ربقة الحشمة ، يداخل الناس ويمازجهم ، حسن الصحبة ، جميل العشرة ، يضرب بسهم وافر فى المفاكهة والتنادر ، جيد القصص ، حسن الحديث ، لايأنف من حديث فاجر اذا كانت فيه نكتة حلوة ، كثرت أصحابه على اختلاف منازعهم وطبقاتهم ، وهو عند كل جماعة منهم قطب الرحى ، يمتزج بأرواحهم ويتصل بقلوبهم ، خبير كل الخبرة بأندية اللهو وما إليها ، يعرف جد المعرفة برامج السينما فى كل أسبوع ، وما يمثل من روايات فى كل فصل من الفصول ، وعنده الخبر اليقين عن كل مغن ومغنية ، وفنان وفنانة أتت من مصر إلى الأسكندرية تغنى أو تمثل ، ذهب عنه خفر عينيه وأصبح يتعشق الجمال ويتتبعه ، ويحملق فيه ويشتهيه ، حلت المسائل المالية جزءا كبيراً من عقله فهو كثير التفكير فيها ، له ديون وعليه ديون ، وله قضايا وعليه قضايا ، وله دفاتر حساب دقيقة ، وله آمال مالية واسعة

حادثته مرة ، وكان أشد ما أريد استطلاعه منه أن أعرف حال دينه الذى كان يملك عليه قلبه وعقله ، والذى كان يغمر حياته ويسيطر على كل خطوة من خطواته ، فاذا عقله حر شديد الحرية فى تفكيره ، قد تحرر من كل قيد ، يعجب بالمدنية الحديثة ويستلهمها الرأى ويستوحيها النظر ، ويتخذ عماد منطقه ومصدر حكمه على الأشياء ما يفعله الاوربيون وما لا يفعلون . قد يعارض ما يراه من ضروب المدنية مبدأ من مبادىء دينه فيظهر عليه نوع من الارتباك والحيرة ، ويجمجم فى القول ويتبين فى قوله الاضطراب بين دين خالط لحمه ودمه شطراً من حياته ، وبين عقل نزع إلى الحرية فى آخر أيامه ، ويشعر بثقل الموقف على نفسه فيجتهد فى تحوير الحديث ، وتغيير مجرى القول إلى حيث يسترد كامل رأيه ، ومنتهى حريته — هذا عقله ، وأما قلبه فدينه فى رف من رفوفه ، لم يملأه ولم يخل منه ، لذلك حرت أن أسميه مؤمناً أو كافراً ، ماشيته مرة على البحر فرآه جميلاً جليلاً ، ورأى القمر يسطع عليه بنوره الساحر ، فصاح هذا موضع سجود ، فصلى على الرمل ، ودعانى مرة إلى ملهى فكان فيه كمن لايؤمن بحساب ولا عقاب ، وهكذا تذبذبت حياته بين نزعة قديمة ، ونزعة جديدة ، ودين نشأ عليه ، ولا دين مال حديثاً إليه ، حينا يتحرك دينه الذى فى الرف وينتعش حتى يعم قلبه ، وحينا ينكمش وينكمش حتى لايكاد يرى أو يحس

* * *

حننت اليه لما بيننا من حب قديم ، ولكن لست أدرى لم لم تتأكد بيننا الصداقة فى هذه المرة كما تأكدت من قبل ، أكان يعطفنى عليه دينه وقد رق ؟ أم كان يحننى عليه مافيه من ضعف — مظهره الحياء والخجل ، وقد قوى فلا حياء ولا خجل ، أم كانت تؤلف بيننا وحدة فتعددت ، وأسلوب واحد فى الحياة فتفرقت بنا السبل ، لعله شىء من ذلك ، ولعله كل ذلك ، ولعله شىء غير ذلك ، على كل حال تركته وبيننا ودّ دخله العقل فخف ، وصداقة جال فى نواحيها الفكر ففترت

لقد خليته ، وأنا أفكر فى شأنه ، لقد عاش شيخاً وهو شاب ، وعاش شاباً وهو شيخ — عصى هواه صغيراً وأطاعه كبيراً ، فليته ولد كبيراً ثم عاد صغيراً ، وليت شعرى هو فى أى حاليه أسعد ، أيوم فر من العالم إلى دينه ، أم يوم فر من دينه إلى العالم ؟ — انه ليمثل فى حياته العالم خير تمثيل ، موجة دين تتبعها موجة الحاد ، وموجة روحانية تتلوها موجة مادية ، وهكذا دواليك ، وما أدرى أيقف صديقنا فى تطوره عند هذا الحد ، أم يعود سيرته الأولى ، أم يختط مسلكاً جديداً لا هو هذا ولا هو ذاك ؟ الله أعلم ما

أحمد أمين